إبراهيم الخليل عليه السلام
وقومه وما جرى معهم

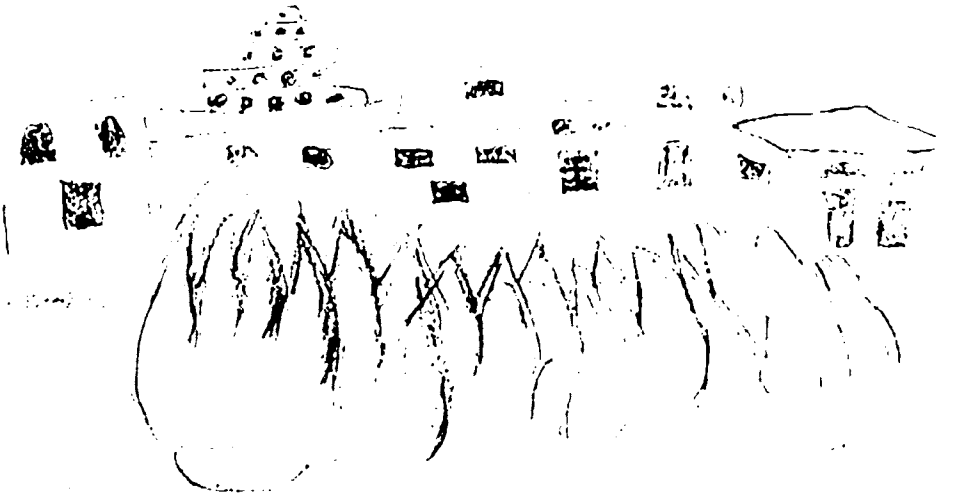

نسبهم

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشد بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. هذا نص أهل الكتاب في كتابهم.

وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يكنى أبا الضيفان. قالوا: ولما كان عمر تارخ خمسًا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وناحور، وهاران، وولد لهاران لوط. وعندهم أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الأوسط، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل. وهذا هو الصحيح صفاتهم:

كانوا يعبدون الكواكب السبعة، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال؛ ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعيادًا وقرابين. وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا سوى إبراهيم الخليل، وامرأته، وابن أخيه لوط عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

موقعهم

المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر. والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام؛ لأنه صلى فيه إذ جاء معينًا للوط عَلَيْهِ السَّلَامُ. قالوا: فتزوج إبراهيم سارة، وكانت سارة عاقرًا لا تلد. قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم، وامرأته سارة،

وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حران، فمات فيها تارخ وله مئتان وخمسون سنة. وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين، وهي أرض بابل وما والاها. ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران، وهي أرض الكشدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضًا.

حياتهم

كان الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي أزال الله به الشرور، وأبطل به الضلال. فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولًا، واتخذه خليلًا في كبره. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]. أي كان أهلًا لذلك. وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧].

ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه، وكان أول دعوته لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم:٤١- ٤٨].

يذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة، بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام، التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، كيف تغني عنه شيئًا، أو تفعل به خيرًا من رزق أو نصر؟

ثم قال منبهًا على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع، وإن كان أصغر سنًّا من أبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم:٤٣]، أي مستقيمًا واضحًا سهلًا حنيفًا، يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك، فلما عرض هذا الرشد عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه، ولا أخذها عنه، بل تهدده وتوعده ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ ﴾ [مريم: ٤٦]. قيل: بالمقال. وقيل: بالفعال ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦] أي واقطعني، وأطل هجراني. فعندها قال له إبراهيم: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ ﴾ [مريم:٤٧]، أي لا يصلك مني مكروه، ولا ينالك مني أذى، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده خيرًا، فقال: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧]. قال ابن عباس وغيره: أي لطيفًا. يعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨]. وقد استغفر له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما وعده في أدعيته، فلما تبين له أنه

عدو لله تبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة. فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني. فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد. فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»[1]. هكذا رواه في قصة إبراهيم منفردًا.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤]. هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر. وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارح. وأهل الكتاب يقولون: تارخ بالخاء المعجمة. فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر.

وقال ابن جرير: والصواب أن اسمه آزر، ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب، والآخر علم، وهذا الذي قاله محتمل، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ

(١). أخرجه البخاري (١٣٩/٤ رقم٣٣٥٠).

فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:٧٥-٨٣]. وهذا المقام مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله ﷻ؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هو، ولا رب سواه، فبين لهم أولا عدم صلاحية الكوكب -قيل: هو الزهرة- لذلك ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧]، ولهذا قال: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ [الأنعام:٧٨]، أي طالعة ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٧٨-٨٠]، أي لست أبالي في هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، فإنها لا تنفع شيئًا، ولا تسمع

ولا تعقل، بل هي مربوبة مسخرة: كالكواكب ونحوها، أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر: أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران، فإنهم كان يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرًا، كما ذكره ابن إسحاق وغيره، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق، وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتها، وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٥١-٧٠].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:٨٣-٩٨].

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان، وحقرها عندهم، وصغرها، وتنقصها، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

﴿وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢]، أي معتكفون عندها وخاضعون لها ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٣]، ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء:٥٤]، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٥-٨٧]، قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره. وقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٢-٧٤]، سلموا له أنها لا تسمع داعيًا، ولا تنفع ولا تضر شيئًا، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم، ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال؛ ولهذا قال لهم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧]، وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام؛ لأنه تبرأ منها، وتنقص بها، فلو كانت تضر لضرته، أو تؤثر لأثرت فيه ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:٥٥]، يقولون: هذا الكلام الذي تقوله لنا، وتنتقص به آلهتنا، وتطعن بسببه في آبائنا، تقوله محقًّا جادًّا فيه أم لاعبًا، قال: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، يعني: بل أقول لكم ذلك جادًّا محقًّا، وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ربكم، ورب كل شيء، فاطر السماوات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا

شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين. وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧]، أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم. قيل: إنه قال هذا خفية في نفسه. وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم. وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره، فقال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، كما قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٨-٨٩]، عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم، ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي تستحق أن تكسر، وأن تهان غاية الإهانة، فلما خرجوا إلى عيدهم، واستقر هو في بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات:٩١]، أي ذهب إليها مسرعًا مستخفيًا، فوجدها في بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعًا من الأطعمة قربانًا إليها، فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٩١-٩٣]؛ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدوم في يده، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء:٥٨]، أي حطامًا كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨]، قيل: إنه وضع القدوم في يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار، فلما رجعوا من عيدهم، ووجدوا ما حل بمعبودهم ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون، وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء، لكنهم قالوا من جهلهم، وقلة عقلهم، وكثرة ضلالهم، وخبالهم: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٥٩-٦٠]، أي يذكرها بالعيب، والتنقص لها، والازدراء بها، فهو المقيم عليها، والكاسر لها، وعلى قول ابن مسعود أي يذكرهم بقوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٧]، ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء:٦١]، أي في الملأ الأكبر على رءوس الأشهاد، لعلهم يشهدون مقالته، ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه، وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يجتمع الناس كلهم، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه، كما قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لفرعون: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩].

فلما اجتمعوا وجاءوا به. كما ذكروا: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٢-٦٣]، قيل: معناه هو الحامل لي على تكسيرها، وإنما عرض لهم في القول ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول أن هذه لا تنطق، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٤]، أي فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا: ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، أي في تركها لا

حافظ لها، ولا حارس عندها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء:٦٥]. قال السدي: أي ثم رجعوا إلى الفتنة، فعلى هذا يكون قوله: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي في عبادتها. وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، أي فأطرقوا، ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٥]، أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ فعند ذلك قال لهم الخليل ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧]، كما قال: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات:٩٤]. قال مجاهد: يسرعون. ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥]، أي كيف تعبدون أصنامًا أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون؟! ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وسواء كانت (ما) مصدرية أو بمعنى (الذي)، فمقتضى الكلام: أنكم مخلوقون، وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يعبد مخلوق مخلوقًا مثله، فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطل، فالآخر باطل للتحكم؛ إذ ليست العبادة تصلح، ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له. ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:٩٧-٩٨]. عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة، إلى استعمال قوتهم وسلطانهم، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرب جل جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى

﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٠]. وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة، فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأطلقوا فيه النار، فاضطرمت وتأججت والتهبت، وعلاها شرر لم ير مثله قط، ثم وضعوا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في كفة منجنيق، صنعه لهم رجل من الأكراد، يقال له: هيزن، وكان أول من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه، وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك. فلما وضع الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا، ثم ألقوه منه إلى النار، قال: حسبنا الله، ونعم الوكيل. كما روى البخاري، عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤]، الآية. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك»[1].

(١). أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (رقم٧٥)، والبزار في مسنده (١٩/١٦ رقم٩٠٤٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٩/١)، وابن قدامة في صفة العلو (رقم٤٢)، حسنه

وذكر بعض السلف: أن جبريل عرض له في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. ويروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أومر فأرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، قال علي بن أبي طالب: أي لا تضريه، وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ لأذى إبراهيم بردها. وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار، ولم يحرق منه سوى وثاقه. وقال الضحاك: يروى أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان معه يمسح العرق عن وجهه، لم يصبه منها شيء غيره. وقال السدي: كان معه أيضًا ملك الظل. وصار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في مثل الجونة حوله النار، وهو في روضة خضراء، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه، ولا هو يخرج إليهم، فعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وروى ابن عساكر، عن عكرمة: أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عَلَيْهِ السَّلَامُ فنادته: يا بني إني أريد أن أجيء إليك، فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك. فقال: نعم. فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته، وقبلته، ثم عادت. وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين، وإما خمسين يومًا، وأنه

المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (٣٠٢/٢)، بينما ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٦٠/٣رقم١٢١٦).

قال: ما كنت أيامًا ولياليَّ أطيب عيشًا، إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها. صلوات الله وسلامه عليه.

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا، قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠]. وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:٩٨]، ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردًا ولا سلامًا، ولا يلقون فيها تحية ولا سلامًا، بل هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

وعن سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحًا موضوعًا، فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ، نقتلهن به، فإن رسول الله ﷺ، حدثنا «أن إبراهيم حين ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه»[1]، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

ولما ادعى واحد من قوم إبراهيم الربوبية، ونازع الله في إزار العظمة ورداء الكبرياء، فادعى الربوبية، وهو أحد العبيد الضعفاء، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ

(١). أخرجه أحمد (٤١/٢٩٤ رقم٢٤٧٨٠)، ابن ماجه (٢/١٠٧٦ رقم٣٢٣١)، وصححه ابن حبان (١٢/٤٤٧ رقم٥٦٣١)، وقد صح عن أم شريك رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ، أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام» أخرجه = = البخاري (٤/١٤١ رقم٣٣٥٩)، ومسلم (٤/١٧٥٧ رقم٢٢٣٧).

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]. يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد، الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ دليله، وبين كثرة جهله وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، قاله مجاهد. وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشد بن سام بن نوح. قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا.

فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان. والكافران؛ النمرود وبختنصر، وذكروا أن نمرودًا هذا استمر في ملكه أربع مئة سنة، وكان قد طغا وبغا، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا، ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الإمهال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل في ذلك، وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال له الخليل: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٨]. قال قتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق: يعني أنه إذا أتي بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا، وأمات الآخر، وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو

انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات؛ من إحياء الحيوانات، وموتها على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة، وعدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة؛ من خلقها، وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب، والرياح، والسحاب، والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها. ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، فقول هذا الملك الجاهل: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾. إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئًا يتعلق بكلام الخليل؛ إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل، ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلًا آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود، وانقطاعه جهرة، قال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق، كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت، فأت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحيي ويميت، هو الذي يفعل ما يشاء، ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة، أو تنتصر منها، فبين ضلاله وجهله، وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه

وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت؛ ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد ذكر السدي: أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود، يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وعن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطي الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب، فملأ منه عدليه. وقال: أشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله، وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعامًا طيبًا، فعملت منه طعامًا، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه، فقال: أنَّى لكم هذا؟! قالت: من الذي جئت به. فعرف أنه رزق رزقهموه الله ﷻ.

وقال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكًا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم الثالثة فأبى عليه. وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذبابًا من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظامًا بالية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك، فمكثت في

منخريه أربع مئة سنة، عذَّبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله ﷻ بها، والله تعالى أعلم.

ذكر هجرة الخليل إلى بلاد الشام ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٦-٢٧]، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٢-٧٣]. لما هجر قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقرًا لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده، فعلى أحد نسله وعقبه، خلعة من الله وكرامة له، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه ﷻ، ودعوة الخلق إليه، والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله ﷻ: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١]، قاله أبي بن كعب، وأبو العالية، وقتادة، وغيرهم.

وروى العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾. مكة ألم تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦]. وزعم كعب الأحبار: أنها حران. وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب: أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط، وأخوه ناحور، وامرأة إبراهيم سارة، وامرأة أخيه ملكا، فنزلوا حران، فمات تارخ أبو إبراهيم بها.

والمشهور: أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرًا من بلاده، والله أعلم. وذكر أهل الكتاب: أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك، فابتنى إبراهيم مذبحًا لله شكرًا على هذه النعمة، وضرب قبته شرقي بيت المقدس، ثم انطلق مرتحلًا إلى اليمن، وأنه كان جوع أي قحط وشدة، وغلاء فارتحلوا إلى مصر، وذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها قولي: أنا أخته. وذكروا إخدام الملك إياها هاجر، ثم أخرجهم منها، فرجعوا إلى بلاد التيمن، يعني أرض بيت المقدس، وما والاها، ومعه دواب وعبيد وأموال.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات، كل ذلك في ذات الله: قوله: إني سقيم. وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة، إذ نزل منزلًا، فأتي الجبار، فقيل له: إنه قد نزل ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: إنها أختي، فلما رجع إليها قال: إن هذا سألني عنك، فقلت: إنك أختي، وإنه ليس

اليوم مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فانطلق بها، فلما ذهب يتناولها أُخِذَ، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك، فدعت له، فأرسل فذهب يتناولها، فأخذ مثلها أو أشد منها، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك. فدعت فأرسل ثلاث مرات، فدعا أدنى حشمه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكن أتيتني بشيطان، أخرجها، وأعطها هاجر. فجاءت وإبراهيم قائم يصلي، فلما أحس بها انصرف، فقال: مهيم؟ فقالت: كفى الله كيد الظالم، وأخدمني هاجر»[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعي إلى آلهتهم، فقال: إني سقيم. وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. وقوله لسارة: إنها أختي. قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس. قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أختي. قال: فأرسل بها. قال: فأرسل بها إليه. وقال: لا تكذبي قولي، فإني قد أخبرته أنك أختي، إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت توضأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله». قال أبو الزناد قال أبو سلمة بن عبدالرحمن، عن أبي هريرة أنها قالت: «اللهم إن يمت يقل: هي قتلته. قال: فأرسل. قال: ثم قام إليها. قال: فقامت توضأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك

(١). أخرجه البخاري (٤/١٤٠ رقم٣٣٥٨)، ومسلم (٤/١٨٤٠ رقم٢٣٧١).

وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليَّ الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله». قال أبو الزناد، وقال أبو سلمة، عن أبي هريرة أنها قالت: «اللهم إن يمت يقل هي قتلته. قال: فأرسل. قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إليَّ إلا شيطانًا، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها هاجر. قال: فرجعت فقالت لإبراهيم: أشعرت؟ إن الله رد كيد الكافر وأخدم وليدة»[1].

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: «ما منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي». فقوله في الحديث: «هي أختي»، أي في دين الله، وقوله لها: «إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك». يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك، ويتعين حمله على هذا؛ لأن لوطًا كان معهم، وهو نبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقوله لها لما رجعت إليه: مهيم؟ معناه ما الخبر فقالت: «إن الله رد كيد الكافر»، وفي رواية «الفاجر»، وهو الملك «وأخدم جارية»، وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلي لله ﷻ، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء، وهكذا فعلت هي أيضًا، كلما أراد عدو الله أن ينال منها أمرًا قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله ﷻ بما تقدم من الدعاء العظيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١). أخرجه البخاري (٣/٨٠ رقم٢٢١٧).

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة؛ سارة، وأم موسى، ومريم عليهن السلام، والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن، ورأيت في بعض الآثار: أن الله ﷻ كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهدًا لها، وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه؛ ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبًّا شديدًا لدينها، وقرابتها منه، وحسنها الباهر، فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولله الحمد والمنة.

ثم إن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية، ثم إن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور، المعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدوم، وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشرارًا كفارًا فجارًا، وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل يأمره أن يمد بصره، وينظر شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك، ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض، وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة، بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية، يؤيد ذلك قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[1]. قالوا: ثم إن طائفة

(١). أخرجه مسلم (٤/٢٢١٥ رقم٢٨٨٩).

من الجبارين تسلطوا على لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فأسروه، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ سار إليهم في ثلاث مئة وثمانية عشر رجلًا، فاستنقذ لوطا عَلَيْهِ السَّلَامُ، واسترجع أمواله، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقًا كثيرًا وهزمهم، وساق في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق، وعسكر بظاهرها عند برزة، وأظن مقام إبراهيم المنسوب إليه ببرزة اليوم إنما سمي؛ لأنه كان موضع موقف جيش الخليل، والله أعلم. ثم رجع مؤيدًا منصورًا إلى بلاده، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين، واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

وإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل الله ذرية طيبة، وأن الله بشره بذلك، وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشر سنين، قالت سارة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن الرب قد أحرمني الولد، فادخل على أمتي هذه، لعل الله يرزقنا منها ولدًا. فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فحين دخل بها حملت منه. قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها سارة، فشكت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها: افعلي بها ما شئت. فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافي، فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيرًا. وأمرها بالرجوع، وبشرها أنها ستلد ابنًا، وتسميه إسماعيل، ويكون وحش الناس، يده على الكل، ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته، فشكرت الله ﷻ على ذلك.

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذي سادت به العرب، وملكت جميع البلاد غربًا وشرقًا، وأتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم يؤت أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل وبركة رسالته ويمن بشارته وكماله فيما جاء به. وعموم بعثته لجميع أهل الأرض.

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ قالوا: ولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة. ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة فخر لله ساجدًا. وقال له: قد استجبت لك في إسماعيل، وباركت عليه وكثرته، ونميته جدًّا كبيرًا، ويولد له اثنا عشر عظيمًا، وأجعله رئيسًا لشعب عظيم. وهذه أيضًا بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشر عظيمًا هم الخلفاء الاثنا عشر المبشر بهم في حديث عبدالملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يكون اثنا عشر أميرًا». ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبي ما قال؟ قال: «كلهم من قريش». أخرجاه في الصحيحين، وفي رواية: «لا يزال هذا الأمر قائمًا». وفي رواية: «عزيزًا حتى يكون اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش»[1]. فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومنهم عمر بن عبدالعزيز أيضًا، ومنهم بعض بني العباس، وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقًا، بل لا بد من وجودهم، وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذي يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم علي بن أبي طالب،

(١). أخرجه البخاري (٨١/٩ رقم٧٢٢٢)، ومسلم (١٤٥٢/٣-١٤٥٣ رقم١٨٢١).

وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا، وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وأخمد نار الفتنة، وسكن رحى الحروب بين المسلمين، والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور، وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا، فذاك هوس في الرءوس، وهذيان في النفوس، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود: أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعًا، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما، قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم أين تذهب، وتدعنا ها هنا، وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: فإذا لا يضيعنا. وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب النوادر: أن سارة تغضبت على هاجر، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها، وأن تخفضها، فتبر قسمها. قال السهيلي: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثقبت أذنيها منهن، وأول من طولت ذيلها.

ذكر مهاجرة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بابنه إسماعيل وأمه هاجر

إلى جبال فاران، وهي أرض مكة وبنائه البيت العتيق.

عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب، وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى. أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك

سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه. تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضهن، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم»، أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لعهدنا بهذا الوادي، وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك. قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال عبدالله بن عباس قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته،

فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم. جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم. أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك. فطلقها وتزوج منهم أخرى، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه».

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة وأمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلًا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد

والوالد بالولد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني. قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]، قال: وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧]، يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله، إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم، أنه بنى البيت العتيق، الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه، وبوأه الله مكانه، أي أرشده إليه ودله عليه[(٢)].

---

(١). أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٥/١٠٥ رقم٩١٠٧)، والنسائي في سننه الكبرى (٧/٣٩٩-٤٠١ رقم٨٣٢٠ و٨٣٢١)، والبيهقي في الكبرى (٥/١٦٠ رقم٩٣٧٠).

(٢). البداية والنهاية مرجع سابق (١/٣٣٤-٤٠٠).

الشرك في قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومنهجه في محاربته.

وبعد مدة طويلة من الزمن، ظهر في بابل عباد الأصنام، كما ظهر في حران عباد الكواكب والأصنام، فبعث الله تعالى فيهم إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وعن معبودات أهل بابل، يذكر صاحب قصة الحضارة: بأنه كان لأهل بابل كثير من الآلهة ... ذلك أن كل مدينة كان لها رب يحميها، وقد كان للمقاطعات والقرى آلهة صغرى تعبدها وتخلص لها، وإن كانت تخضع رسميًّا للإله الأعظم، ثم قل عدد الآلهة شيئًا فشيئًا بعد أن فسرت الآلهة الصغرى بأنها صور أو صفات للآلهة الكبرى، وعلى هذا النحو أصبح (مزدك) إله باب كبير الآلهة البابلية. وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة، فشادوا لها الهياكل وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد[1].

وأما عباد الكواكب من أهل حران، فكانوا على مذهب الصابئة المتعصبة للروحانيات، وهم يقولون بأن للعالم صانعًا فاطرًا حكيمًا، ولا يمكن الوصول إلى جلاله ومعرفته، وإنما يتقرب إليه بواسطة المقربين إليه، وهم الروحانيون المطهرون، الذين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١). قصة الحضارة: وِل ديورَانت -ويليام جيمس ديورَانت، تقديم: الدكتور محيي الدّين صابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م (٢/٢١١).

قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

ويعتقدون أن الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها، هي هياكل للروحانيات، فلكل روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به كنسبة الروح إلى الجسد، فهو ربه ومدبره، وكانوا يسمون الهياكل أربابًا، وربما يسمونها آباء، والله تعالى هو رب الأرباب، وإله الآلهة، ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة، ورب الأرباب[1].

إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يدعو قومه إلى التوحيد

جادل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وناقش قومه بالحجة والبرهان، دون خوف أو مبالاة من أحد، وهو فريد لا يجد من ينصره، أو يشد أزره، حتى إن والده، وهو أقرب الناس إليه وقف له بالمرصاد.

ولكن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ سار في طريقه، لا يأبه لشيء، وأعلن في الناس دعوته متحديًا كل من يتصدى له، قائلا: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٩].

ولما كان والد إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أعلم القوم بصناعة الأصنام، وكان الناس يشترونها منه، كان إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يحمل أكثر وأقوى الإلزامات

(١). الملل والنحل: أبوالفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي (١٠٧/٢).

على والده، وقد ضرب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ المثل الرائع في الجمع بين قوة الحجة والإقناع، وأدب الحديث مع والده.

وقد قص الله تعالى لنا تلك المجادلة في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم:٤١-٤٥].

وفي هذه الآيات نحس أسلوب الداعية المخلص في التوجيه والتعليم، الذي يحذر في لطف وينذر في لين، ويعرف منزلة الأبوة ومكانتها، فيعطيها حقها من اللين والاحترام.

ومع أن تلك الأبوة لم تقابل هذه الدعوة بالحنان والشفقة، بل انقلبت إلى نار تتأجج وجحيم يتوقد، تمثل ذلك في قول تلك الأبوة الظالمة: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]. فإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقابل تلك الشدة بمثلها، كما يفعل الأبناء الجهلة، ولكنه قابل تلك الشدة باللين والإحسان، فهو يقول لوالده: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧].

وهذا الاستغفار من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما كان طمعًا منه في إيمان أبيه، ولكنه حينما ظهر له إصراره على الشرك، وعداوته المتأصلة لدين الله تعالى، تبرأ منه وقطع صلته به، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

وأما دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه الوثنيين، فقد سلك معهم منهجًا مرتبًا، لا تعقيد فيه ولا غموض، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٦-١٨].

فمن خلال الآيات الكريمة، نرى أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد دعا قومه دعوة بسيطة واضحة، وهي مرتبة في عرضها ترتيبًا دقيقًا يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوة، لينسجوا على منواله في مخاطبة النفوس والقلوب.

١. فهو أولًا: بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوهم إليها: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ﴾.

٢. ثم أثنىٰ بتحبيب هذه الحقيقة إليهم، وما تضمنته من الخير لهم، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٣. وفي الخطوة الثالثة يبين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه:

أ. إنهم يعبدون من دون الله أوثانًا، والوثن -التمثال من الخشب- وهي عبادة سخيفة، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله.

ب. إنهم بهذه العبادة لا يستندون إلىٰ برهان أو دليل، وإنما يخلقون إفكًا وينشئون باطلًا من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة.

ج. إن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعا، ولا ترزقهم شيئا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾.

٤. وفي الخطوة الرابعة يوجههم إلىٰ الله ليطلبوا منه الرزق، الأمر الذي يهمهم ويمس حاجتهم ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾، والرزق مشغلة النفوس، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان، ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس.

وفي النهاية يهتف بهم إلىٰ وهاب الأرزاق المتفضل بالنعم، ليعبدوه ويشكروه: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾، ويكشف لهم أنه لا مفر من الله، فمن الخير أن يتوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

٥. وأخيرًا بين لهم أنهم إن كذبوا بعد ذلك فلن يضروا الله شيئًا، ولن يخسر رسوله شيئًا، فقد كذب الكثيرون من

قبل، وما على الرسول إلىٰ واجب التبليغ ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨].

بهذا الأسلوب المثالي في الدعوة، أخذ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو قومه، ولكنه حينما لم يجد قبولًا لدعوته أو سماعًا لتوجيهاته ونصائحه، أخذته الغيرة والحماس لدين الله تعالى ونصرته، فصاح بهم قائلا: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢]، ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]. ثم توعدهم بتحطيم تلك الأصنام في غيابهم ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧].

وكان للقوم عيد يخرجون فيه كل عام بعيدًا عن العمران، وطلبوا من إبراهيم أن يشاركهم في بهجة ذلك الاحتفال، لكنه رفض مشاركتهم، واعتذر بقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]، ولما خرجوا إلى ذلك الاحتفال، وغادروا المساكن والعمران، ذهب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى معبودات أولئك القوم، فوجد أنهم وضعوا أمامهم شتى أنواع الأطعمة والأشربة، فقال في تهكم لهذا العمل السخيف: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات:٩١-٩٢].

ثم انفلت عليها يحطم ويهدم، وقد ترك كبير الأصنام ليقيم به على قومه الحجة، لعلهم يفيقون إلى رشدهم، ويرعوون عن غيهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨].

وبعد أن انتهى القوم من احتفالهم ورجعوا إلى أصنامهم، فوجئوا بما حدث، قال بعضهم لبعض في دهشة: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٥٩-٦٣].

كان من المفروض أن يفيق أولئك القوم إلى رشدهم عند هذا الحد، ويوقنوا بسخافة عبادتهم لها، ولكن القوم استمروا في غيهم وجدالهم، وقالوا لإبراهيم: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٥]. ورد عليهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ساخرًا منهم: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧].

ولما لم يبق في أيدي القوم شيء يحتجون به، عدلوا عن الجدل والمناظرة، وقرروا استخدام القوة والسلطان، لنصرة ما هم عليه من ضلال وباطل: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]. وألقوا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في نار مستعرة انتقامًا منه، ومما يدعو إليه، ولكن الله تعالى صرف كيدهم، وجعل تلك النار بردًا وسلامًا عليه، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠].

ولما سمع الملك الطاغية نمرود بن كنعان عن نجاة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من النار، خشي على نفسه ومنصبه، فاستدعاه ليناقشه عن إلهه الذي يعبده، ويدعو الناس إلى عبادته، فأجابه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن ربه الذي يحيي ويميت، ولكن النمرود أجاب بأنه هو كذلك يحيي ويميت، قال ابن قتادة وابن إسحاق والسدي وغيرهم: أنه كان يؤتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فيأمر بقتل أحدهما فيقتل، ويعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة في نظره[1].

قال ابن كثير: والظاهر -والله أعلم- أنه ما أراد هذا، لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم، ولا في معناه، لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨][2].

ولما رأى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حماقة الطاغية ومشابهته في الدليل، عدل إلى دليل آخر، أجدى وأروع وأشد إفحامًا، فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى

(١). ذكر هذا الأثر ابن كثير في تفسيره (٦٨٦/١)، دون ذكر عبارة: في نظره. فهذه من زيادات المؤلف صاحب كتاب منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين.

(٢). تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م (٦٨٦/١).

﴿بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]. عند ذلك أخرس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة، وأصبح مبهوتًا لا يستطيع أن ينطق بكلمة، وكأنما ألقم الحجر.

اقرأ هذه المناظرة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وكانت نهاية هذا الطاغية كما ذكر ابن كثير عن زيد بن أسلم قال: دخلت بعوضة واحدة في منخر النمرود، وأخذ يعذبه الله بها مدة طويلة، حتى كان يضرب رأسه بالمرزاب، حتى أهلكه الله بها[1].

ولما انتقل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أرض بابل إلى منطقة حران، وأمله أن يجد من أهلها قلوبًا تتفتح إلى النور والهدى، ولكنه مع الأسف وجد أهلها أشد ظلامًا، وأكثر جهلًا، حيث وجدهم يعبدون ويؤلهون الشمس والقمر والنجوم، فعند ذلك نزل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حلبة الميدان، يجادل بالحجة والبرهان، مستخدمًا معهم طرق العقل والمنطق، لعلهم يفيقون إلى رشدهم، ويعبدون الإله الحق الذي يسير تلك الكواكب، والآيات التالية تبين لنا الأسلوب الذي سلكه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ معهم في التدرج إلى معرفة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١). تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق (٦٨٧/١).

قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٧٦-٨٣].

ونلاحظ من خلال الآيات الكريمة أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أعلن لهم خيبة أمله في جميع هذه الكواكب، وأن واحدًا منها لا يستحق أن يكون إلهًا حقًّا، فهي تظهر من هنا، وتغيب من هنا، وإذا كانت الآلهة تغيب، فمن الذي يرعى الخلائق عند غيابها، أو من يدبر أمرها إذا أفلت. فلا بد إذا من إله خالق الكل، وهيمن على مسيرتها وحركتها، حتى أكبرها لا يعدو أن يكون واحدًا من هذه الكواكب السيارة. ورب هذه الكواكب هو الذي ينبغي التوجه إليه، وصرف العبادة له[1].

(١). منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام: د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، = = عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية،

العبر والعظات المستفادة

قصص النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه كثيرة وغنية بالعبر والعظات والدروس، فإبراهيم كان أمة وحده، وأثره في ذريته الأنبياء، وتاريخ الدنيا كلها، فمنها:

١. الصبر علىٰ المصائب وتحمل الأذىٰ.

٢. القيام بالدعوة بغض النظر عن النتائج.

٣. البر بالوالد والتلطف له والدعاء له بقصد الهداية.

٤. حسن التوكل علىٰ الله وتفويض الأمر إليه والثقة واليقين في الله برغم كل الشدائد مع الأخذ بالأسباب.

٥. الهجرة مِن أرض الكفر بالله مع انقطاع السبل.

٦. تكريم الله لإبراهيم وأسرته بجعل مناسك الحج مِن أركان وواجبات وسنن إحياءً وتذكيرًا بأعماله وفضله؛ فالكعبة بناؤه، والمقام مقامه، والوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات.

٧. تخليد الله ذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعل له لسان صدق في الآخرين بسبب الطاعة.

الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م (١/١٩٦-٢٠٨).